مجلة العلوم الإسلامية مجلد: 02 عدد 02 ديسمبر 2020 ـــــ ISSN : 2773-2770

ص ـ ص: 54-87

التأثير السّلبي للمستشرقين على العالم الإسلامي الأسباب والنّماذج

❁ رابح بلخير

أستاذ الحديث وعلومه، كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة باتنة 01.

Hamime1427@yahoo.fr

ملخص:

يسلط هذا البحث الضوء على أزمة فكرية عصفت بالعالم الإسلامي أوائل القرن التاسع عشر وامتدت آثارها إلى وقتنا الحالي، والتي كان العامل الأساسي في حصولها رموز الاستشراق الغربي، وذلك من خلال التأثير السلبي لرموزه على العالم الإسلامي، يهدف هذا البحث للكشف عن أسباب هذا التأثير وآلياته، مع إعطاء نماذج حية ليظهر عمق ذلك التأثير على أدبياتهم وأفكارهم التي صوبت سهامها نحو التراث الإسلامي، والتشكيك في الكثير من القضايا الكبرى.

This research sheds light on an intellectual crisis that swept the Islamic world in the early nineteenth century and extended its effects to our present time, which was the main factor in obtaining the symbols of Western Orientalism, by revealing the extent of the negative influence of its symbols on

المنارة للاستشارات

the Islamic world. This research aims to reveal the reasons for this influence and its mechanisms while giving vivid models to show the depth of that influence on their literature and ideas that pointed their arrows towards the Islamic heritage and questioning many of the major issues.

كلمات مفتاحية: **استشراق. تأثير سلبي. عالم إسلامي.**

the Islamic ،the Orientalists ،The negative influence world،

مقدمة: لا شك ولا ريب أن تاريخ الأمة الإسلامية زاخر بأروع النماذج الفذة في خدمة العلم والإنسانية بشكل كبير، والمتابع لهذا الشأن يجد آثارا خصبة تشي بالعمق الكبير الذي تميزت به تلك الآثار، وعلى الرغم من هذا وذاك، لا يزال في الأمة من يعتبر أن العالم الإسلامي بات عاجزا عن مواكبة التطور الرهيب الذي آلت إليه عجلة العلوم، وقد بدأت هذه الفكرة تترسخ حين قاد دفة هذه الأفكار كوكبة من المستشرقين كانت لهم أدوار بارزة في السيطرة على الكثير من الأبحاث العلمية، وإن كان في بعضها خدمات جليلة، لكن البعض الآخر يشكو الدس والكيد، ومن هنا تولدت الإشكالية التالية:

- فيما تتجلى تأثيرات المستشرقين في العالم الإسلامي؟.
- كيف استطاع المستشرقون التأثير على فئة العالم الإسلامي.
- ما هي الأساليب المتبعة في ذلك؟

المنارة للاستشارات

- هل تلك الجهود التي بذلها المستشرقون في التأثير على العالم الإسلامي، كللت بالنجاح؟
- ما موقف علماء الأمة من ذلك التأثر؟.

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى عدة أمور:

- الكشف عن حقيقة التأثير الاستشراقي على العالم الإسلامي.
- بيان أشهر الشخصيات التي تعاطت فكر المستشرقين، ونشرت فكره.
- بيان أساليب المستشرقين في التأثير على أبناء العالم الإسلامي.

- **الخطة:**

مقدمة:

المبحث الأول: تعريف الاستشراق وأسباب تأثيره على أبناء العالم الإسلامي

المطلب الأول: تعريف الاستشراق لغة

الفرع الأول- المفهوم اللغوي للاستشراق في اللغة العربية:

الفرع الثاني- تعريف الاستشراق اصطلاحًا.

المطلب الثاني: أسباب تأثر أبناء المسلمين بأفكار المستشرقين.

المبحث الثاني: أساليب المستشرقين في التأثير على أبناء المسلمين مع ذكر نماذج من ذلك التأثر:

المنارة للاستشارات

المطلب الأول: أساليب المستشرقين في التأثير على المسلمين.

المطلب الثاني: أمثلة على تأثر بعض المسلمين بآراء المستشرقين.

خاتمة.

المبحث الأول: تعريف الاستشراق وأسباب تأثيره على العالم الإسلامي

المطلب الأول: تعريف الاستشراق لغة

الفرع الأول- المفهوم اللغوي للاستشراق في اللغة العربية:

كلمة الاستشراق مشتقّة من مادة "شرق"، يقال: شَرقت الشّمس تَشرُق شُروقاً وشَرقاً، أي: طلعت، واسم الموضع: الْمَشرِق[1].

ومِمّا يَستدعي الانتباه أنّنا إذا تَتَبَّعنا معاجم اللغة العربية المختلفة[2] من خلال مادّة "شرق" فإننا لا نجد هذا الاشتقاق، أي: كلمة "استشراق" وما يتصل به نحو "مستشرق"؛ مما يدل على أنّ هذه الكلمة ليست أصيلة بل هي مُولَّدَة[3] حديثاً[4].

---

[1]- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين المصري، تحقيق عامر أحمد حيدر، ج5 ص912. وتاج العروس في جواهر القاموس، محب الدين مرتضى الزبيدي، تحقيق علي شيري، ج13 ص237.

[2]- ينظر مادّة "شرق" في: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ج3 ص264. ولسان العرب، ج5 ص912-918. وتاج العروس، ج13 ص237-243، وغيرها.

[3]- المولَّد: صفة اللفظ الذي دخل اللغة العربية بعد عصر الاحتجاج، أي: بعد آخر المائة الثانية بالنسبة إلى عرب الأمصار، وآخر المائة الرابعة بالنسبة إلى عرب البوادي. ينظر: المعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي - إميل بديع، ج2 ص1221.

المنارة للاستشارات

واستشرق على وزن **(استفعل)**: من صيغ مزيد الفعل الثلاثي، فالهمزة والسين والتاء زوائد، ثم الفاء والعين واللام (شرق) أصل في الكلمة.

وهذه الصيغة تدلّ على معان مختلفة، أهَمّها: الطلب والسؤال، وهو الغالب فيها[5]، وقد ذهب مؤتَمر المجامع اللغوية بالقاهرة إلى قياسها، فجعل المؤتمر صيغة "استفعل" قياسِيَّة كلَّما احتيج إليها في التعبير، حيث جاء في "مجلة المجمع اللغوي": «يرى المجمع أن صيغة (استفعل) قياسية؛ لإفادة الطلب والصيرورة»[6].

الفرع الثاني: تعريف الاستشراق اصطلاحًا:

لقد قدّم الباحثون في الاستشراق تعريفات مختلفة ومتنوعة تعبّر عن مفهوم هذا المصطلح، ويمكن استعراضها على نحوين أحدهما عام والآخر خاص:

أ) **المعنى العام:** تطلق كلمة "مستشرق" على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وحضارته وأديانه، وهو ما سَمّاه "زقزوق": بالمعنى الواسع.

3)- **المعنى الخاص:** هو «الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه، وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه

---

[4]- معجم متن اللغة، أحمد رضا، ج3 ص310. والاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، ص9.

[5]- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النجار، ج2 ص153-154. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، شرح وتحقيق جاد المولى - محمد أبو الفضل - علي البجاوي، ج1 ص49.

[6]- سنة 1353-1934، مجلد (1)، ص37.

المنارة للاستشارات

عام، وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ "استشراق ومستشرق"، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين»[7].

4)- **تعريف الموسوعة الميسرة في الأديان:** «الاستشراق: تعبير يدل على الاتّجاه نحو الشرق، ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم.

ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامّة، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة»[8].

المطلب الثاني-أسباب تأثر العالم الإسلامي بأفكار المستشرقين:

لا شك أن التأثر البالغ من أبناء العالم الإسلامي بفكر المستشرقين له أسبابه المفضية إليه، ولعل أهمها هو الاحتكاك المباشر بالثقافة الغربية، الشيء الذي يولد الانبهار في نفسية الطالب، الذي جاء من بيئة ليس فيها من مظاهر الرفاهية والرقي العلمي إلا شيء يسير جدا، أضف إلى ذلك الظروف الاجتماعية القاسية التي كان يعيشها، فيجد نفسه في صراع ذاتي بين ما يرى من تفوق علمي، مقارنة بما تركه خلفه من شدة في أساليب العيش، فيعود بعد إنهاء سنوات الدراسة مبهورا، ومحمَّلا في الوقت ذاته بأفكار المستشرقين الذين أوهموه بوجوب التجديد، وطرح الماضي جانبا لتحقيق الرفاهية والتطور المنشود،

[7]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، ص18.

[8]- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف مانع بن حمّاد الجهني، ج2 ص687.

المنارة للاستشارات

مرسخين في ذهنه فكرة نقد التراث الإسلامي، «ومما يؤسف له أن تلامذة هؤلاء المستشرقين من المثقفين ثقافة غربية، الملمين بلغات أجنبيَّة خاصة، اغتروا ببحوثهم المذيَّلة بكثرة المصادر، ودراساتهم المغرضة، فانساقوا وراء مزاعمهم بدون تثبُّت وتأكد، وردَّدوا في كتبهم وأبحاثهم ما سجله أساتذتهم، فمنهم من يفاخر بأخذه من المستشرقين، ومنهم من يلبسه ثوبا إسلاميا جديدا»[9].

كما أن للهزيمة النفسية[10] في قلوب الأتباع أثرها في تقليد هؤلاء المفكرين للمستشرقين في أفكارهم وآرائهم، فجريا وراء التوفيق بين تعاليم الإسلام والحضارة الغربية، ظهرت الكثير من الأفكار المنادية بإيجاد فهم عصري لنصوص القرآن والسنة، من أجل اللحاق بركب الدول الغربية، وقد صدق ابن خلدون ~ حينما اعتبر أن أثر الغالب على المغلوب أمر حتمي فبين في مقدمته «أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله و عوائده، و السبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها و انقادت

[9] - زوابع في وجه السنة قديما وحديثا: صلاح الدين مقبول أحمد، ص69.

[10] - لا شك أن هذه الفكرة قد ترسّخت لدى الطلاب منذ الطفولة، فمن أوائل الدروس التي يتعلمها الطالب في أولى سنوات الدراسة، أنه من دول العالم الثالث، حيث الفقر وتردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وضعف الدخل والبطالة...الخ، مع ما يصحب ذلك من حقائق تاريخية لا انفكاك عنها بأن دول العالم الثالث كانت عبارة عن مستعمرات مستنزفة، وفي مقابل ذلك هناك دول الغرب، الموصوفة بالتطور الرهيب في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والتربوية...الخ، وهنا يتبادر سؤال للذهن، من هم يا ترى دول العالم الثاني، إن كانت دول الغرب هي العالم الأول؟ ولا شكّ أن هذه الأفكار، تولّد في نفسية الناشئ روح الانهزام من أول مراحل حياته، لتصحبه بعدها رغبة في التخلص من هذا الواقع المشين، سواء بالهجرة أو الاستسلام للعجز المفضي إلى تعطل طاقات لها الدور الفعال في المجتمع، ولهذا فإن الباحث يرى أن تغيير نفسيات الطلاب الشباب، وتوعيتهم بالقيم الدينية المبنية على المعتقد السليم، والتي تحث على الاعتزاز وزرع الأمل فيهم، يعد أول مكسب لتحقيق الأمل المنشود.

المنارة للاستشارات

إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك و اتصل لها اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب و تشبهت به، و ذلك هو الاقتداء أو لما تراه -و الله أعلم- من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية و لا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد و المذاهب تغالط أيضاً بذلك عن الغلب»[11].

وقد لخص الشيخ مصطفى السباعي الأسباب التي جعلت بعض المسلمين ينخدعون بما كتبه المستشرقون عن الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم: « ومن الملاحظ أن هؤلاء الذين ينخدعون من المسلمين بالمستشرقين والمؤرخين والكاتبين من أعداء الإسلام الغربيين، لا يوقعهم في الفخ الذي نصبه لهم هؤلاء إلا أربعة أمور غالبا:

1- إما جهلهم بحقائق التراث الإسلامي وعدم اطلاعهم عليه من ينابيعه الصافية.

2- وإما انخداعهم بالأسلوب العلمي" المزعوم" الذي يدعيه أولئك الخصوم.

3- وإما رغبتهم في الشهرة والتظاهر بالتحرر الفكري، من ربقة التقليد كما يدّعون.

4- وإما وقوعهم تحت تأثير " الأهواء" و"انحرافات" فكرية، لا يجدون مجالا للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أولئك المستشرقين والكاتبين »[12].

[11] - تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون، 184/1.

[12] - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: مصطفى السباعي، ص17-18.

المنارة للاستشارات

ولقد وَلَّدَ الاغترار بأفكار المستشرقين من قبل أبناء المسلمين، جيلا من الشباب المثقف المشدوه نحو الغرب بصورة كبيرة، فأسهمت الدراسات الغربية في نشر أفكار مغلوطة حول الإسلام عموما ، والسنة خصوصا يقول الدكتور محمد بهاء الدين: « لقد تركت الدراسات الاستشراقية الحاقدة آثارها على بعض المسلمين ممن تلقوا دراساتهم في الجامعات الغربية، أو في جامعات بلادهم التي لم تكن هي الأخرى بمعزل عن تلك الدراسات التي تسربت إليها بشكل أو بآخر؛ فأخذ أولئك المتأثرون والمبهورون بتلك الدراسات يرددون شبهات المستشرقين، ويروجون لها بين المسلمين، ويعتبرونها حقائق علمية مسلما بها، وأخذوا يعلمونها طلابهم من المسلمين، ويكتبون فيها المؤلفات، وبذلك يحققون آمال المستشرقين والمستعمرين »[13].

ولعل من غير المعقول أن ينفي أحد وجود أثر لهذه الدراسات على أبناء المسلمين، بدعوى عدم التهويل أو بعدم إثارة البلبلة في أوساط الأمة بالتطرق لهذه النقطة، إذ لا يمكننا أن نتغافل عن أدوائنا، فتزداد تفاقما، فنساهم بتأخير شفائها، وقد أحسن من قال:

إذا ما الجرح رمَّ على فساد تبيَّن فيه تفريط الطبيب[14]

يقول الدكتور أبو شهبة - عن مدى نجاح المستشرقين في التأثير على بعض المسلمين - : «قد نجح المستشرقون إلى حد ما في التأثير في بعض الكتاب المسلمين في عصرنا الأخير؛ فاقتفوا آثارهم فيما زعموا، ورددوا من دعاوى لم تقم عليها من بينات، بل زادوا عليها من عند أنفسهم، وكل هؤلاء وأولئك نفثوا سمومهم باسم البحث، والمعرفة،

[13]- المستشرقون والحديث النبوي: محمد بهاء الدين، ص257.

[14]- ديوان البحتري، ت. حسن كامل الصيرفي، 100/1.

المنارة للاستشارات

وحرية النقد، والله يعلم والراسخون في العلم يعلمون أن ما زعموا أبعد ما يكون عن العلم الصحيح والبحث القويم والنقد النزيه»[15].

المبحث الثاني-أساليب المستشرقين في التأثير في العالم الإسلامي مع ذكر نماذج من ذلك التأثر:

المطلب الأول- أساليب المستشرقين في التأثير على المسلمين:

لقد ظل المستشرقون طيلة عقود من الزمن ينهلون من علوم الشرق، ويرتشفون من تراث الأمة الإسلامية، لكن الغاية من كل هذه العناية، لم تكن في أكثرها سوى أغراض استعمارية بحتة، وتعزيزا لهذه الغاية المنشودة؛ أسّسوا جامعات تعنى بتعليم العلوم الإسلامية لأبناء المسلمين وغيرهم، فأشرف المستشرقون على رسائل وأبحاث، وحقَّقوا كتبا باسم خدمة التراث الإسلامي، إلا أن هذه المؤلفات كانت تشكوا النقص والدَّس، فأنتجت هذه الدراسات، وتلك الجامعات فئة من المثقفين، يحملون فكرا مشبعا بآرائهم المستشرقين ، ولقد تكلم عن ذلك الدكتور محمد فتحي عثمان بقوله: «مرَّت على العرب والمسلمين - بل على الشرقيين بوجه عام - فترة من الزمن كان كل ما يصدر عن الغرب عنهم قضايا مسلمة لا مجال للنقاش فيها، واعتبرت بحوث المستشرقين والمستعربين وعلماء الدراسات الإسلامية من الغربيين نموذجا يحتذى ومثلا أعلى، وصارت الاقتباسات المأخوذة عنهم زينة كتابات الشرقيين والعرب المسلمين، وغدت النتائج التي انتهى إليها الأولون منطلقات ومرتكزا للآخرين»[16].

[15]- دفاع عن السنة: أبو شهبة، ص113.

[16]- مجلة العربي، العدد: 252، سنة: 1979م، ص34.

المنارة للاستشارات

فاستغلت بعض الأقلام، توفر بيئة متعطّشة لتلقي العلوم لم تجد أمامها إلا مزبورات المستشرقين الذين تصدرت أبحاثهم قائمة ما يطبع آنذاك، فروجت لها على أنها مصدرا للأمانة العلمية والموضوعية البحتة، فجعلوا من كتاباتهم سبيلا لتمرير آراء المستشرقين بأساليب شَتَّى، تدور بين التعريض طورا، وطورا من خلال التصريح المباشر، وفي أغلب الأحيان يتم نقل أقوال المستشرقين وآرائهم على أنها من أبحاث الكاتب، ومن كيسه واجتهاداته، كما فعل أحمد أمين وطه حسين في كتبهما حول تاريخ الإسلام، وفعل غيرهما، «وقد انعكست آثار المستشرقين على السياسة والاجتماع والحركة الفكرية في البلاد العربية والإسلامية على حد سواء؛ فكان أن حلَّت بلبلة فكرية واجتماعية نتيجة لذلك، لا يزال المسلمون في مختلف بلدانهم يعانون منها»[17].

يقول الأستاذ إبراهيم اللبان: «إن المستشرقين يكونون - بالنسبة للمسلمين - مشكلة ثقافية ودينية كبرى؛ لأن أفكارهم - غَثَّها وسمينها، سقيمها وصحيحها - تسربت إلى بعض الجامعات العربية والإسلامية، **واحتلت بعض العقول العاملة فيها، واكتسبت منهم أنصارا ودعاة وناشرين**»[18].

وهذا الأمر في حقيقته صَعَّبَ مِنْ مُهِمَّة الباحثين، لأن اختراق الصف العلمي، وبث الشبهات المبطنة، يفتح على العلماء والباحثين الغيورين جبهتي دفاع؛ جبهة داخلية وجبهة خارجية - إن صح التعبير -، فكم ضاعت من جهود، وأهدرت من أوقات من أجل الرد على بعض

[17] - الاستشراق والحديث النبوي، محمد بهاء الدين، ص254.

[18] - مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، ص11.

المنارة للاستشارات

المفكرين الذين هم من بني جلدتنا، والذين مرّروا كثيرا من الآراء التي كانت في الأساس من وضع المستشرقين.

ومن تدبر أساليب الاستشراق في التأثير على العالم الإسلامي يجد أن المستشرقين سلكوا سبلا مختلفة لتحقيق أهدافهم وغاياتهم، فتنوّعت مجالات أنشطة الحركة الاستشراقيّة على مستوى أصعدة وميادين عديدة، ومن أهمّها:

أولا- الجامعات (التدريس الجامعي): استخدم المستشرقون الجامعات بشكل خاصّ لنشر أفكارهم وإذاعتها بين الطبقة المثقفة في أوربّا، ثم بعد ذلك في الشرق العربي والإسلامي.

ويكاد يكون هناك في كلّ جامعة أوربية وأمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية، ولكلِّ معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية الإسلامية[19].

كما عمل الاستشراق المعاصر على إنشاء معاهد وجامعات يُشرف عليها في بلدان العالم الإسلاميّ خاصّة، وبلدان الشّرق عامة.

ومن بينها: "الجامعة الأمريكية" في: بيروت ومصر وتركيا، و"الكلّية الفرنسيّة" في لاهور بالهند، وغيرها[20].

وهكذا سقطت هذه الجامعات الغربيّة في بلاد المسلمين تحت الأيدي الخفيّة للاستشراق والتبشير والدوائر الاستعماريّة، وغدت خططها ومناهجها وتوجيهاتها تَخضع بطريق غير مباشر لِما تفرضه وتُمليه هذه الأيدي الخفية، وغدت الكنيسة الغربية تفخر بأنّ العلوم

[19]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، ص63-64.

[20]- المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، ص9-10.

المنارة للاستشارات

الإسلاميّة والعربية تُدرّس على طريقتها التي تخدم أغراضها في بلاد المسلمين، وبأنّ المشرفين على تدريس هذه العلوم من تلامذتها. وقد تأثّر كثير من الذين درسوا في الجامعات الغربية من أبناء المسلمين بدراسات المستشرقين، وانخدعوا بأساليبهم وأخذوا يردّدون شبهاتهم، ويعتبرونها حقائق علميّة مسلّما بها[21].

ثانيا- جمع المخطوطات: اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بِجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي؛ وكان هذا العمل قائما على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تَحمل تراثاً غنيًّا في شتى مجالات العلوم[22].

وكانت الجهات الحكوميّة المعنية في أوربا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق، ولقد تَمّ جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، كما لقيت هذه المخطوطات في أوربا اهتماماً عظيماً، وتَمّ العمل على حفظها والعناية بها، وفهرستها فهرسة علمية[23].

كما ساعدت الحملة الاستعماريّة الأوربيّة على بلدان الشرق الإسلامي في العصر الحديث وبشكل كبير على جلب الكثير من المخطوطات[24].

وتُقدَّر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوربا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف[25].

---

[21]- أجنحة المكر الثلاثة، حبنكة الميداني، ص153.

[22]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، زقزوق، ص63-64.

[23]- المصدر نفسه، ص63. وينظر في ذلك أيضا: تاريخ حركة الاستشراق، يوهان فوك، ص193.

[24]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص63.

المنارة للاستشارات

ثالثا- التحقيق والنشر والتأليف: قام المستشرقون بتحقيق الكثير من كتب التراث، وقابلوا بين النسخ المختلفة، ولاحظوا الفروق وأثبتوها، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام في أواخر الكتب التي نشروها.

وبذلك استطاعوا أن ينشروا عدداً كبيراً جدًّا من المؤلفات العربية، كانت عوناً كبيراً للباحثين الأوربيين من المستشرقين، وغيرهم من بلاد الشّرق[26].

وقد تعدّدت مجالات التّأليف في الدراسات العربيّة والإسلاميّة لدى المستشرقين، وبلغ مجموع ما ألّفوه عن الشّرق في قرن ونصف (أي: منذ أوائل القرن التاسع عشر حتّى منتصف القرن العشرين) حوالي ستّين ألف كتاب[27].

وهذه المؤلّفات بعضها قيّم لَه فائدة علميّة للباحثين الغربيّين والشرقيين، وبعضها الآخر مَلِيءٌ بالطعن في الإسلام وحضارته[28].

رابعا- الترجمة: قام المستشرقون بترجمة عدد كبير من الكتب العربيّة والإسلاميّة إلى اللغات الأوربيّة كافّة، حيث نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر وكتب التاريخ وغيرها، هذا فضلا عمّا تُرجم في

---

[25]- تاريخ حركة الاستشراق، ص193-194. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص63-64. والمستشرقون، العقيقي، ج3 ص352-353.

[26]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود زقزوق، ص64-65.

[27]- الاستشراق، إدوارد سعيد، ص216. والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص67.

[28]- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص68.

المنارة للاستشارات

القرون الوسطى مِن مؤلفات العرب والمسلمين في: الفلسفة والطبّ والفلك وغيرها من العلوم[29].

خامسا- الجمعيّات والمؤسّسات: بدأ المستشرقون في النِّصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي وفي مختلف بلدان أوربا وأمريكا بإنشاء جمعيّات ومؤسّسات لِمتابعة الدراسات الاستشراقيّة:

فتأسّست أوّلا "الجمعيّة الآسيويّة" في باريس سنة (1822م)، ثُمّ "الجمعيّة الملكيّة الآسيويّة" في إنجلترا عام (1823م)، و"الجمعيّة الشّرقيّة الأمريكيّة" عام (1842م)، و"الجمعيّة الشرقيّة الألمانيّة" عام (1845م)، وقد قرّرت هذه الجمعيّة في عام (1861م) إنشاء معهد ألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، وهذا ما فعله المستشرقون في كل من: النمسا وإيطاليا وروسيا[30].

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيّات في إصدار المجلاّت والمطبوعات الخاصّة ببحوثهم حول الإسلام والمسلمين، وبلادهم وشعوبهم، وكلّ ما يتعلّق بهم.

سادسا- إرساليّات التبشير: التي تنشط في العالم الإسلاميّ فتقوم بأعمال إنسانيّة في الظاهر على مستوى: المستشفيات والجمعيّات الخيرية والملاجئ والمياتِم وأشباهها[31].

[29]- المصدر نفسه، ص66.

[30]- الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، ص37.

[31]- المصدر نفسه، ص34.

المنارة للاستشارات

وقد أشار المستشرق "لو شاتليه" في بحث له إلى هذا الجانب، وبيّن نشاط الاستشراق في هذا المجال، وأثره في تحقيق الأهداف التبشيرية للعالم الأوربيّ[32]، كما في نصّه السابق.

سابعا- عقد المؤتمرات: لإحكام خططهم في حقيقة الأمر، ولبحوث عامّة في الظاهر، وتَضمّ هذه المؤتمرات مئات المستشرقين الذين يجتمعون من مختلف البلدان الغربيّة، فمثلا: "مؤتمر أكسفورد" سنة (1928م) كان يضمّ: تسعمائة (900) مستشرق، من خمس وعشرين (25) دولة.

وتُنشر بحوث هذه المؤتمرات في مجلّدات للاهتداء بِها كنُظُم ومناهج، تُعتبر أصولا وأمّهات يستند إليها الباحثون الغربيّون في دراساتهم[33].

ثامنا- المجلاّت: ومن أهمّها: "مجلّة جمعية الدراسات الشّرقيّة" الأمريكيّة، وهذه المجّلة لها فروع في: لندن وباريس وغيرها.

و"مجلّة العالم الإسلامي" التي يصدرها المستشرقون الفرنسيون: واتّجاهها عدائي تبشيري، ولهم أيضا مجلّة تُسمّى "الدراسات الإسلامية".

وأصدر المستشرقون الألمان "مجلّة الإسلام".

وأخطر المجلاّت التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في العصر الحديث "مجلة العالم الإسلامي"، التي بدأت نشاطها سنة (1911م) وطابعها تبشيري سافر[34].

---

[32]- الغارة على العالم الإسلامي، لو شاتليه، ص13-17.

[33]- المستشرقون، العقيقي، ج3 ص365-367. والاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، ص35.

المنارة للاستشارات

المطلب الثاني-أمثلة على تأثر بعض المسلمين بآراء المستشرقين:

كثيرة هي النماذج التي تصلح شاهدا على تأثر بعض أبناء المسلمين بفكر الاستشراق، وما يهمّني منها الإكثار، وإنما الإشارة التي تفي بالغرض في هذا الجانب، ليتبين لنا خطورة الأمر.

أولا: محمود أبو ريّة:

لقد تجرأ هذا الرجل على الكتابة في مواضيع خطيرة جدا، ودعواه في إثارتها، حرصه على بيان وجه الحق في مسائل بقيت خافية طوال عدة قرون، وذلك ضمن كتابه: أضواء على السنّة المحمّديّة.

ويكفي الكتاب ما قاله عنه مقدم الكتاب طه حسين: « وموضوع الكتاب خطير حقا وقيم حقا، لا يقف الناس عنده في هذه الأيام، وإنما يشفقون منه أشد الإشفاق، يخافون أن تَزِلَّ أقلامهم أو أن يثيروا سخط المحافظين الذين قرروا أن هذا النحو من العلم قد أصبح شيئا مقدسا أو كالمقدس لا ينبغي التعرض له إلا بالنقل والاستشهاد..»[35]، وقد زلت قدمه وتاه في وخاض بقرائه بحرا خضما بسبب مضمون كتابه، جعل ثلة لا بأس بها من معاصرين يردون عليه ردودا علمية كانت حديث المتخصصين آنذاك.

ومن طالع كتابه المذكر يجده يولي عناية بارزة بنقل آراء المستشرقين بشكل صريح، والإشكال أن مضمون الكتاب هو ألصق ما يكون بدراسة الحديث النبوي، وفيما يلي بعض ما نقل:

---

[34]- الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، السباعي، ص37-38. وينظر للتوسع أكثر: المستشرقون، العقيقي، ج3 ص377-388.

[35] - أضواء على السنة المحمدية: محمود أبو رية، ص6، وقد حذف الكاتب أشياء من مقدمة طه حسين في طبعته الأخيرة ، ومن بينها هذا الكلام.

المنارة للاستشارات

1- ينقل من كتاب: جولد سهير "العقيدة والشريعة في الإسلام"، بقوله: « وإليك هذه الكلمة الصغيرة ننقلها من كتاب العقيدة والشريعة للمستشرق الكبير جولد سهير.." وهناك جمل أخذت من العهد القديم والجديد، وأقوال للربانيين أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة، وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث...»[36].

2- يحيل أبو رية قراءه على كتب المستشرقين من أجل معرفة الإسرائيليات فيقول: « ومن شاء أن يستزيد من معرفة الإسرائيليات والمسيحيات وغيرها في الدين الإسلامي ، فليرجع إلى كتب التفسير والحديث والتاريخ وإلى كتب المستشرقين أمثال جولد سهير، وفون كريمر وغيرهما، فقد نقلت فيهما من هذه الإسرائيليات والمسيحيات أشياء كثيرة»[37].

ثانيا- أحمد أمين:

لقد سلك أحمد أمين مسلكا مغايرا لأبي رية، لأن الأخير كان لا يخفي نقله عن بعض المستشرقين دون أن يرى في ذلك أدنى غضاضة أو شبهة، أما أحمد أمين فإن أسلوبه مبطن، قد يحسب القارئ لكتبه أن تلك الأفكار من كيسه، وفي هذا يقول عنه الأستاذ صلاح الدين مقبول ما نصه: « وكان كاتبا بارزا سلك مسلك المستشرقين في شن

[36] - المصدر نفسه: ص 190. ينظر: الأنوار الكاشفة للشيخ المعلمي: ص26، 92، 107، 140، 177. وكتاب دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين: محمد أبو شهبة، ص36، 37، 122، 139. والسنة ومكانتها في التشريع: مصطفى السباعي، ص353-408.

[37] - المصدر السابق، ص191.

المنارة للاستشارات

الهجوم على السنة ودواوينها، وإثارة الشبهات حولها، مقنعا بستار العلم والبحث..»[38].

ولعلي أذكر قصة تنبئ عن هذا الأسلوب الذي أشار إليه الأستاذ صلاح الدين مقبول، ذكرها الشيخ مصطفى السباعي في كتابه السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، وهي كافية في التدليل على ما نحن فيه من بيان تأثر أحمد أمين بالمستشرقين.

قال الشيخ مصطفى السباعي ~: «ولما ثار النقاش حول الإمام الزهري عام: 1360هـ، قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبد القادر، وهو الذي أثيرت الضجة حوله: "إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، **فخير طريقة لبث ما تراه مناسبا من أقوال المستشرقين، ألا تنسبها إليهم بصراحة، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك، وألبسها ثوبا رقيقا لا يزعجهم مسها، كما فعلت أنا في (فجر الإسلام) و (ضحى الإسلام)**، هذا ما سمعته من الدكتور: علي حسن عبد القادر نقلا عن الأستاذ أحمد أمين»[39].

والأمثلة عن الأستاذ أحمد أمين في نقله عن المستشرقين كثيرة، قد أشار إليها ، الشيخ مصطفى السباعي والشيخ محمد عجاج الخطيب، والدكتور محمد أبو شهبة في بحوثهم التي دافعوا بها على

[38] - زوابع في وجه السنة قديما وحديثا: صلاح الدين مقبول أحمد، ص75.

[39] - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: مصطفى السباعي، ص266، ينظر أيضا: بيان الشبه الواردة على السنة قديما وحديثا، وردها ردا علميا صحيحا: محمد أبو شهبة، وهو كتاب ملحق بكتابه دفاع عن السنة: ص،252-388، زوابع في وجه السنة: صلاح الدين مقبول أحمد، ص75-79، السنة قبل التدوين: محمد عجاج الخطيب، ص255-259، السنة المفترى عليها: سالم البهنساوي، ص263-266-292-295.

المنارة للاستشارات

السنة، ولكن الإشارة تكفي، ولمن أراد التوسع في بحث آرائه فليرجع إلى كتبه وما تكلم فيها، ثم ليقابلها بكتب العلماء الذين ذكرتهم.

ثالثا: طه حسين:

الأديب والكاتب الذي لقّب بعميد الأدب العربي، والذي استطاع أن ينشر فكره المستقى من أوربا، بواسطة كتاباته المنتشرة بشكل كبير جدا بين أوساط الشباب المثقف -أنذاك-، ولقد ظهر تأثّره بالمستشرقين جليا في كتاباته تلك.

يقول الرافعي: «نحن لا نرجع عن رأينا، في أن تقليد بعض المستشرقين هو الذي أفسد طه، فقد صحبهم وأخذ عنهم، ثم نزع إلى مذاهبهم وأقاويلهم، لأنه وإيّاهم سواء أو متقاربون في الرّكاكة وسقم الفهم، والوقوع بالبعد البعيد من أسرار الكلام العربي ومعانيه»[40].

ويقول الدكتور محمد فتحي عثمان، عن طه حسين ومن على طريقته في المنهج والتفكير: «كان جيل طه حسين ومنصور فهمي وتلاميذهما؛ من غلاة المشايعين للحضارة الأوربية الغربية وثقافتها خيرها وشرها، حلوها ومرّها، ما نحبُّ منها ونكره، ومن زعم غير ذلك فهو خادع أو مخدوع، كما عبَّر طه حسين في كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر"، وكما عَبَّرَتْ مذكرات زوجته الفرنسية التي نشرتها أخيرا»[41].

[40] - تحت راية القرآن: مصطفى صادق الرافعي، ص141.

[41] - مجلة العربي، عدد 252، تاريخ 1979م. ص35.

المنارة للاستشارات

يقول أنور الجندي: «ويكاد طه حسين في كلّ أعماله الكبرى، أن يكون خاضعا للاستشراق متأثّرا به تابعا له، معليا من قدره، متحدّثا عن فضله على الأدب العربي والفكر الإسلامي»[42].

ثم أخذ أنور الجندي يعدّد المواطن التي خضع فيها "طه حسين" للمستشرقين فقال: «في كتابه"الشعر الجاهلي": أخذ نظريّته من مرجليوث، رأيه في" مع المتنبي": أخذه نظريّته من بلاشير، مذهبه في النقد: أخذ نظريته من تين، وبرودنير، بحثه عن ابن خلدون: أخذه من دوركايم..»[43].

وليس يخفى أثر طه حسين على المجتمع المصري، خصوصا وقد تبوّأ الرجل مكانة عالية ومناصب مهمة، ثم إن من طالع مؤلفاته التي انتشرت في الآفاق يلمس ما يذكر عنه.

رابعا: محمد حسين هيكل:

صاحب كتاب: حياة محمد »، والذي ألفه من أجل أن يُعَرِّفَ النَّاسَ بسيرة النبي »، غير أنه لم يسلم من تبعيته البارزة للمستشرقين في هذا الكتاب، بل ظهر تأثره بالاستشراق والمستشرقين أكثر من سابقيه، وما سطَّره في مقدمة كتابه هذا (حياة محمد)، يحث صراحة على متابعة الغرب والنهل من علومهم، ليس في العلوم الكونية، ولا التكنولوجية فحسب، وإنما في الفكر والأدب والفن، فقال: «وليس ريب في أن الشرق اليوم، في حاجة أشد الحاجة إلى النَّهل من ورد الغرب في التفكير، وفي الأدب والفن، فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامي

[42] - طه حسين في ميزان العلماء والأدباء: محمود مهدي الاستانبولي، 385.

[43] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات

وماضيه، قرون من الجمود والتعصب، غشّت على تفكيره السليم القديم، بطبقة كثيفة من الجهل وسوء الظن بكل جديد، فلا مفرَّ لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة، من الاستعانة بأحدث صور التفكير في العالم، ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحيّ، وثروة الماضي وتراثه العظيم»[44].

ولم يتوقف الأمر عند هذه الدعوة للنهل من علوم الغرب، بل ذهب يعلن صراحة بأن للغرب حق علينا - بعد أن ساموا تراثنا بالتشويه، والتشكيك في السنة النبوية - فيقول: «ومن الحق علينا للغرب: أن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة في تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية، قد مهدت لأبناء الإسلام وأبناء الشرق، أن يتزوَّدوا من هذه البحوث في تلك الدراسات»[45].

يترجم هيكل دعوته السابقة في ثنايا كتابه، بالنقل عن المستشرقين تصريحا تارة، وتلويحا أخرى، ولا يرى غضاضة في ذلك ولا حرج، لأنه يثق بصدق وجدِّيَّة بحوثهم، ومثالا على ذلك، تجده عند الكلام عن حادثة الإسراء والمعراج يعرض عن الروايات الصحيحة في كتب السنة، لكنه في المقابل ينقل عن المستشرقين فيقول: «سرد المستشرق دِرْمَنْجَمْ هذه القصة مستخلصة من مختلف كتب السيرة، في عبارة طلية رائعة هذه ترجمتها: "في منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله، وصمتت فيه طيور الليل وسكتت الضواري...استيقظ محمد على صوت يصيح به: أيها النائم قم، فإذا أمامه الملك جبريل وضاء الجبين أبيض الوجه كبياض الثلج، مرسلا شعره الأشقر واقفا في

[44] - حياة محمد: محمد حسين هيكل، ص36.

[45] - المصدر السابق، نفس الصفحة

المنارة للاستشارات

ثيابه المزركشة بالدُّرِّ والذَّهب، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش...فقيَّد محمد دابَّته وصلى على أطلال هيكل سليمان...وكانت السماء الأولى من فضّة خالصة، علقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب... وفي هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم...ولقي محمد في السماوات الست الأخرى: نوحا وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحي وعيسى...ورأى ملك الدمع يبكي على خطايا الناس، وملك النقمة ذا الوجه النحاسي، المتصرف في عنصر النار والجالس على عرش من لهب...وكان في السماء السابعة مقر العدل ملك أكبر من الأرض كلها، له سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان، يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة، من كل سبعين ألف لهجة، وكلها تسبّح بحمد الله وتقدسه...»[46].

يقول محمد حسين هيكل بعد سرده قصة الإسراء والمعراج من رواية هذا المستشرق: « هذه رواية المستشرق درمنجم عن قصة الإسراء والمعراج، وأنت تقع على ما قصَّه في كثير من كتب السيرة، وإن كنت تجد فيها جميعا خلافا يزيد أو ينقص في بعض نواحيها»[47].

ما يمكن التعليق به على هذا الكلام أن يقال: ومتى كان المستشرقون أصحاب رواية وأين؟! وأين نجد في كتب السيرة المعتمدة،"شعر جبريل الأشقر، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش"، أو"قيَّد محمد دابته وصلى على أطلال سليمان.."، أو ملك النقمة ذا الوجه النحاسي"..الخ.

[46] - المصدر السابق، ص203-204.

[47] - المصدر السابق، ص205.

المنارة للاستشارات

لقد أخذنا هذا المستشرق - ومعه هيكل - إلى عالم من الخيال، فساق لنا قصة إسراء النبي ¢ على نمط القصص الخيالي، وكان الأولى بهيكل أن يستغني بكتب السنة التي ساقتها بأسانيدها الصحيحة إلى النبي ¢ الذي ذكر لنا قصة رحلته إلى علياء السماء بلسان عربي مبين، وهو من هو في فصاحته وبيانه، ولا غرو فإنه أوتي صلوات ربي وسلامه عليه جوامع الكلم، ولكن تأثير الاستشراق على هيكل، أنساه الرجوع إلى كتب السنة.

إن جيل المتأثرين بالمستشرقين كان يعاني من نقص كبير في معرفة حقائق كثيرة عن دينهم، ولا يعني وجود هذا النوع من المتأثرين بالاستشراق غياب علماء كانوا يمثلون للمستشرقين أسيادا، لا يرفعون أمامهم هامة ولا يطاولونهم قامة، وإن كان طه حسين وأحمد أمين وغيرهم، قد رضوا لأنفسهم بالتبعية لفكر المستشرقين تصريحا أو تلويحا، فإن المستشرقين قد رضخوا أمام بعض علمائنا الذين كانوا شامة في جبين العلم، واعترفوا أمامهم بالقصور دون رتبتهم.

يقول أنور الجندي « كان المستشرقون في الماضي يقفون من رجالنا موقف التلاميذ، أمثال أحمد زكي باشا، وأحمد تيمور، وعبد العزيز جاويش، وليراجع الباحثون مناقشة عبد العزيز جاويش في مؤتمر المستشرقين في الجزائر عام 1905م لأحد المستشرقين عن القرآن واللغة العربية، ثم تغيرت الخطط، فأصبح مثقفونا في جامعات أوربا تلاميذ للمستشرقين في دراستهم، وجاء بعضهم إلى مصر من بعد، فأعلى من شأن الاستشراق (يراجع مقدمة طه حسين لكتابه عن الأدب الجاهلي)، ومن المعروف أن طه حسين وزكي مبارك ومنصور فهمي، ومحمود عزمي كانوا تلاميذ لمستشرقين يهود هم: دوركايم، وليفي برايل، والأخير حرض

المنارة للاستشارات

منصور فهمي على معالجة موضوع تعدد زوجات الرسول » بأسلوب استشراقي«[48].

وفي ختام هذا المطلب لا يسع الباحث إلا أن يذكر نتفا من النماذج الفريدة، والتي شكلت حيز مقاومة متين تجاه الفكر الاستشراقي والمستشرقين عموما.

ومن المواقف المشرفة لعلمائنا مع المستشرقين، ما ذكره الشيخ مصطفى السباعي ~ في كتابه القيم: "السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي"، وأنه التقى بثلة من المستشرقين في جامعات غربية، وأبدى ملاحظاته حول ما كتبوه وأوقفهم على مكامن أخطائهم، فأذعنوا جميعا لطرحه، ومما قال عن لقاءه بالمستشرق شاخت -مع بعض الاختصار-: «وفي جامعة "ليدن" بهولندا، اجتمعت بالمستشرق اليهودي " شاخت"، وهو الذي يحمل في عصرنا هذا رسالة " جولد تسيهر" في الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه، وباحثته طويلا في أخطاء " جولد تسيهر" وتعمده تحريف النصوص التي ينقلها عن كتبنا، فأنكر ذلك أول الأمر، فضربت له مثلا واحدا مما كتبه جولد تسيهر في تاريخ السنة...وكيف حرف قول الزهري: " إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) إلى لفظ (على كتابة أحاديث) فاستغرب ذلك، ثم راجع كتاب جولد تسيهر...فقال: معك حق أن جولد تسيهر أخطأ هنا، قلت له: هل هو مجرد خطأ؟ فاحتدّ وقال: لماذا تسيئون به الظن؟ فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهري من عبد الملك بن مروان، وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفي زعمه جولد تسيهر...وبعد مناقشة في هذا الموضوع قال: وهذا خطأ أيضا من جولد تسيهر ألا يخطىء العلماء؟

[48] - شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي: نور الجندي، ص88-89.

المنارة للاستشارات

قلت له: إن جولدتسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي تبني حكمها في التشريع الإسلامي على وقائع التاريخ نفسه، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين يتكلم عن الزهري؟ وكيف جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير، مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير؟ وهنا اصفرّ وجه " شاخت" وأخذ يفرك يدا بيد، وبدا عليه الغيظ والاضطراب، فأنهيت الحديث معه بأن قلت له: لقد كانت مثل هذه "الأخطاء" كما تسميها أنت، تشتهر في القرن الماضي، ويتناقلها مستشرق منكم عن آخر، على أنها حقائق علمية، قبل أن نقرأ - نحن المسلمون- تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها، أما الآن فأرجوا أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على" أخطائكم" لتصحّحوا في حياتكم قبل أن تقرّر كحقائق علمية عندكم»[49].

هذه القصة بطولها تشهد بمدى إفحام مصطفى السباعي - الذي قد لا يوليه بعض الباحثين قيمته اللائقة به- لمستشرق بحجم شاخت، والذي يعد عمدة المستشرقين بعد جولدسيهر.

ومما يظهر-أيضا- تفوق علمائنا الأفذاذ وعدم تأثرهم بالاستشراق، ومعرفتهم بأساليبهم، ومكانتهم العلمية الحقيقية، ما قاله الشيخ الإبراهيمي ~ وهو على منصة مجمع اللغة العربية[50] معاتبا لجان المجمع وأعضائه على أشياء كان يرى خلافها، فاغتنم فرصة ضمه إلى أعضاء المجمع ليبدي ملاحظاته عليهم فقال: «وأشد ما كنا ننكر من

[49] - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: مصطفى السباعي، ص29-30.

[50] - كلمة الإمام في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، في حفل تنصيب أحد عشر عضوًا من مختلف أقطار العروبة بتاريخ 12 مارس 1962.آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 5/ 292[هامش].

المنارة للاستشارات

أعماله استعانته بالمستشرقين في شأن هو من خصائص الأمة العربية، ولكننا كنا لا نستطيع الجهر بما ننكره على المجمع، ولا نشيع قالة السّوء عنه، لأننا نعلم أنه ناشئ، وأن النشأة مظنة للنقص، وننتظر به مرور الزمان، واستحكام التجارب ومواتاة الفرص حتى يصلح من شأنه بنفسه، والزمان يقيم الأمت، ويقوِّم السمت، إلّا شيئًا واحدًا ما كنا نقبل فيه عذرًا ولا نتسامح فيه فتيلًا، وهو مسألة الاستعانة بالمستشرقين، ولقد كنا نستسيغ الاستعانة بالأجنبي في بناء سد، أو مد سكة، أو تخطيط مدينة، مما سبقنا إليه الأجانب وبرعوا فيه، أما الاستعانة بهم في شأن يخصنا كاللغة فلا!!...ومتى رأينا مستشرقًا بلغ في العربية وفهم أسرارها ودقائقها ومجازاتها وكناياتها ومضارب أمثالها ما يبلغه العربي في ذلك كله؟...على أن بعض أولئك المستشرقين الذين كانوا أعضاء بهذا المجمع، كانوا مستشارين في وزارات الخارجية في بلدانهم، وهذا قادح آخر يضاف إلى قادح قصورهم في اللغة العربية.»[51].

ولا يفوتني أن أنقل رسالة المستشرق المجري جولد سهير إلى الشيخ العلامة طاهر ابن صالح الجزائري، لتبيّن لكل المبهورين بهذا الرجل مكانة الشيخ طاهر[52]، ومكانة علمائنا وأن العيب في تقصيرنا عن

[51] - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 5/ 293

[52] - جاء في مجلة الأزهر، ج25 ص173/ عدد صفر 1373، الموافق لـ 10أكتوبر 1953م، مقالا بعنوان: "جولدسهير والشيخ طاهر الجزائري" ذُكِرَ فيه ما يلي: « كتب الأستاذ محمد أمين حسونة مقالا بعنوان "المستشرقون المجريون" في مجلة مجرية استقى ما فيها من معلومات عن مصادر أوربية، ومما جاء فيها عن أجناس كولد صهر ما يأتي: "درس في مدارس اللغات الشرقية في برلين وليزيك وفيينا، ورحل إلى سوريا عام 1873، **وتتلمذ للعلامة طاهر الجزائري**، ثم نزح إلى مصر حيث تضلع في العربية على شيوخ الأزهر، وقد شهد له علماء الجامعات بطول الباع وبعد

المنارة للاستشارات

التحصيل، يدلنا على هذا رسالة نقلتها مجلة الأزهر من خط جولد سهير نفسه، فكتب للشيخ قائلا:

«سلام إلى صاحب الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، ومن هو المرجع للأماثل والأفاضل، الحاوي لأقصى معارج الفضائل والفواضل، العالم العلامة الشيخ طاهر بن صالح المغربي الجزائري... يا أيها الشيخ العلامة أن أستفهمكم عن مسألة دمشقية لا أجد حلَّها في الكتب التي تحت تصرفي، مع شدة اشتياقي لإزالة شبهتي في تلك المادة، فذلك أني قرأت... [وذكر مسألته، ثم ختم رسالته بعد السؤال بقوله] تفضل علي يا أيها الشيخ بإفادة جواب شافي، مثابا جميل الثواب من الله الكريم الوهاب، وتخبروني أيضا عن أحوالكم كلياتها وجزئياتها»[53].

إنني حينما أنقل هذه النقول حول أثر الاستشراق، لست نافيا تعلّق بعض المستشرقين بتراثنا، محاولين دراسته والنهل منه بشيء من الإنصاف مثل المستشرقة الألمانية: زغريد هونكة، التي كتبت عن الحضارة الإسلامية العربية، واحتفت بأمجادنا يوم قلب بعض أبناء المسلمين لها ظهر المجن، لقد كتبت هذه المستشرقة عدة كتب أشهرها: شمس العرب تطلع على الغرب، ومن الغريب حقا أن تسكن المؤلفة «مع زوجها وأولادها ببون، في منزل أثثته على طراز عربي، لتشعر بسعادة غامرة، ولتحس أنها تعيش في جو قوم أحبتهم حبا شديدا»[54].

النظر"، ثم ذكر مؤلفاته وأعماله العلمية، ومنها أنه "ترجم إلى الألمانية كتاب (توجيه النظر إلى علم الأثر) لأستاذه طاهر الجزائري».

[53] - مجلة الأزهر: 25/173-174، عدد: صفر 1373، الموافق: 10 أكتوبر 1953.

[54] - مقدمة د.فاروق سعيد بيضون، و د. كمال الدسوقي، على كتاب شمس العرب تطلع على الغرب، ص8.

المنارة للاستشارات

أحسب أن الاستشراق ما هو إلا ظاهرة صحية في تاريخنا، وبقدر ما استفاد من تراثنا، بقدر ما نفث فيه من السموم إما جهلا وإما كيدا، والناتج في النهاية واحد وهو أننا دفعنا الثمن غاليا، جرعنا مرارة مؤلفات أفسدت على مثقفينا صفاء تاريخهم ونقاء عقيدتهم وتراثهم، فكان بعض ما نقل سابقا من مرّ ثمار تلك الحقبة، ولا شك أن تلك الآراء التي انبثقت عن المستشرقين، قد فتحت أمام علمائنا بابا من الجهاد بالقلم، استغرق منهم جهودا جبارة، جعلتهم يكشفوا مكامن الريبة التي تسلل منها أعداؤنا.

ومن هنا واجب على كل باحث مقتدر، أن يوظف جهده في الدفاع عن تراثنا، حتى لا نفقد ثلة من شبابنا الصادقين الذين قد يتأثرون بما ينشره أعداؤنا، فيعيد التاريخ نفسه من جديد.

- **الخاتمة:**

في ختام هذه البحث يمكن تلخيص ما فات في النقاط التالية:

- خطر الاستشراق على العالم الإسلامي كان عميقا جدا، حيث مس الكثير من ميادين العلوم خصوصا الشرعية.
- حاجة الأمة الإسلامية إلى نخبة فذة تصفي دسائس الاستشراق من تراثنا الكبير.
- بقدر وجود متأثرين بأفكار المستشرقين من أبناء المسلمين، وجدت نخبة كانت متشبعة بروح الأمة ولم يؤثر عليها دسائس المستشرقين.

المنارة للاستشارات

- تعدد أساليب المستشرقين لتأثير في العالم الإسلامي، من خلال الجمعيات وعمليات الترجمات والمجلات التي تطبع من خلالها بحوثهم ودراساتهم وكذا الجمعيات والمؤتمرات.
- الضعف السياسي والاقتصادي كانا من بين أهم العوامل التي أثرت سلبا على نفسيات الطلاب المسلمين وكرست نظرتهم الهشة تجاه التراث، وتعظيم ما يقدمه المستشرقون.

- **قائمة المصادر:**

1. آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1997.
2. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف - القاهرة، 1997.
3. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف - القاهرة، 1997.
4. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف - القاهرة، 1997.
5. الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، دار الوراق، المكتب الإسلامي - دمشق، دت.
6. الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، مصطفى السباعي، دار الوراق، المكتب الإسلامي - دمشق، دت.

المنارة للاستشارات

7. الاستشراق: المعرفة - السلطة - الإنشاء، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، ط2: 1984.

8. أضواء على السنة المحمدية: محمود أبورية، دار المعارف-مصر، ط6، د.ت.

9. الأنوار الكاشفة لما في كتاب" أضواء على السنة " من الزلل والتضليل والمجازفة: عبد الرحمن بن يحي المعلّمي، المكتب الإسلامي- بيروت، ط2، 1405هـ- 1985م.

10. تاج العروس في جواهر القاموس، محب الدين فيض محمد المرتضى الزبيدي، تحقيق علي شيري، دار الفكر - بيروت، ط1: 1414-1994.

11. تاريخ حركة الاستشراق - الدّراسات العربية والإسلامية في أوربّا حتّى القرن العشرين-، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي - بيروت، ط2: 2001.

12. تحت راية القرآن: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، ط1، 1423هـ - 2002م.

13. حياة محمد: محمد حسين هيكل، دار المعارف- مصر، ط16، د.ت.

14. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت، دار الكتب المصرية - القاهرة، 2000.

15. دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين: محمد بن محمد أبو شَهبة، الناشر: مكتبة السنة- مصر، ط1، 1989م.

المنارة للاستشارات

16. ديوان البحتري، تحقيق وتعليق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف- القاهرة، ط3، د.ت.

17. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر- بيروت، ط2، 1408 هـ - 1988 م.

18. زوابع في وجه السنة النبوية قديما وحديثا، تأليف: صلاح الدين مقبول أحمد، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية، د ت ط.

19. السنة المفترى عليها، تأليف: سالم علي البهنساوي، دار البحوث العلمية الكويت، الطبعة الثانية: 1401هـ/ 1981م.

20. السنة قبل التدوين: محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة- القاهرة، ط2، 1488هـ-1988م.

21. السنة ومكانتها في التشريع: د. مصطفى السباعي، دار الوراق، بيروت- لبنان، ط1، 1421هـ-2000م.

22. شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، تأليف: أنور الجندي، المكتب الإسلامي بيروت- دمشق، الطبعة الثانية: 1403هـ/1983م.

23. طه حسين في ميزان العلماء والأدباء، إعداد وتقديم وتعليق: محمود مهدي الاستانبولي، المكتب الإسلامي، لبنان، ط1، 1403هـ-1983م.

24. لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن الكرم المصري، تحقيق عامر أحمد حيدر - مراجعة عبد المنعم قليل، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1: 1426-2005.

المنارة للاستشارات

25. المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، مطبعة الجامع الأزهر - الإدارة العامة للثقافة الإسلامية - القاهرة، دت.

26. المزهر في علوم اللغة وأنوعها، جلال الدين السيوطي، شرح وتحقيق محمد جاد المولى - محمد أبو الفضل إبراهيم - علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية - بيروت، 1408-1987.

27. المستشرقون والحديث النبوي: محمد بهاء الدين، دار النفائس-الأردن، ودار الفجر- ماليزيا، ط1، 1420هـ، 1999م.

28. المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف - القاهرة، ط4: 1980-1981.

29. المعجم المفصل في اللغة والأدب، ميشال عاصي - إميل بديع، دار العلم للملايين، - بيروت، ط1: 1987.

30. معجم متن اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1378-1959.

31. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر - بيروت، 1399-1979.

32. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف ومراجعة مانع بن حمّاد الجهني، دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي للطباعة - الرياض، ط4: 1420.

- **المجلات:**

المنارة للاستشارات

1. مجلة الأزهر، ج25 ص173/ عدد صفر 1373، الموافق لـ: 10أكتوبر 1953م.

2. مجلة العربي: ص 144، عدد 82تاريخ: جمادى الأولى 1385هـ ، سبتمبر 1965م.

المنارة للاستشارات